الفصل الثالث

جمع الأصول والمراجع

تمهيد – كتب المراجع (البيليوغرافيات) – الوثائق – البحث عن الوثائق – أمثلة : البحث عن الوثائق فى دار المحفوظات المصرية – فى أرشيف فلورنسا التاريخى – فى أرشيف پيزا – فى كنيسة فرسان سان استيفانو فى پيزا – فى أرشيف البندقية – فى أرشيف فينا التاريخى – فى أرشيف وزارة الخارجية فى پاريس – فى المكتبة الوطنية فى پاريس – فى أرشيف لندن التاريخى – كتابة المذكرات – الرسوم والصور – آثار الإنسان ومخلفاته .

الخطوة التالية فيما نحن بصدده هى أن يتوفَّر الباحث على جمع المادة التاريخية للموضوع الذى وقع عليه اختياره ، من المراجع العامة والخاصة ، أو من المصادر والأصول المطبوعة والمخطوطة ، مع حصر الآثار والمخلفات التى تتعلق به .

والمراجع العامة والخاصة تُفيد فى إعطاء الباحث فكرة عامة عن العصر الذى يكون موضوع البحث جزءاً منه ، كما تُقدم له بعض المراجع التى تعنيه . ومن الضرورى أن يبدأ الباحث فى هذه المرحلة بالإفادة بما كتبه السابقون ، والاستعانة بالمراجع التى اعتمدوا عليها . وعدم العناية بذلك يُعد مضيعةً للوقت وإخلالاً بشروط البحث العلمى . وينبغى على كل جيل من المؤرخين أن يعرف ما كتبه السابقون ، والمراجع التى أفادوا بها . وعليه أن يبدأ حيث انتهوا ، وأن يعمل مؤرخ اليوم لكى يمهد لمؤرخ الغد ، وهكذا على التوالى .

وعلى الباحث أن يتتبع المسألة أو الفكرة الواحدة فى بعض الكتب الجيدة والرديئة على السواء ، مع التعرف على الكتب التى اعتمد عليها أولئك وهؤلاء ، لكى يدرك كيف نَمَتْ هذه الفكرة وتطورت ، وكيف عالجها الكتاب المختلفون . وهذه القراءة المقارنة تساعد الباحث على معرفة أوجه القوة وأوجه الضعف ، وتعينه على الوصول إلى تحديد المسائل الجديرة بالدرس والإيضاح .

فالباحث الذى يرغب فى الكتابة عن ناحية من تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر – مثلا – ينبغى عليه أن يدرس أولا بعض المراجع العامة عن تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عصر دراسته ، لكى يفهم أساس تطور هذه البلاد عبر

التاريخ . ثم يتجه إلى المراجع التى تبحث فى تاريخ مصر فى أثناء القرن الثامن عشر ، ثم يطالع ما كتبه الرحالون الذين زاروا مصر ، ويدرس ما دوّنوه عنها ، قبل التغلغل فى الأصول والوثائق التاريخية فى مصر والخارج ، وذلك لكى يزداد بالتدريج اقترابًا من الناحية التى يرغب فى الكتابة عنها .

وكيف يمكن الباحث أن يعرف كلّ أو جلّ المراجع العامة والخاصة والأصول المطبوعة — أولاً — عن موضوع دراسته ؟ الإحاطة بذلك ليست أمرًا سهلا . ويمكن الباحث فى أول الأمر أن يستعين بالاطلاع على المقالات الواردة فى دوائر المعارف فيعرف بعض المراجع والأصول المطبوعة التى تخصه .

ثم عليه أن يرجع بعدئذ إلى كتب المراجع (البيليوغرافيات) التى تتناول موضوع دراسته . ولقد أصدر الغربيون أنواعًا مختلفة من كتب المراجع ، فمنها البيليوغرافيات العامة . ومنها الخاصة بقطر أو عصر أو بشخصية معينة . وبعضها يكتفى بذكر المراجع والمصادر وأماكن وسنى طبعها وعدد صفحاتها ، بينما يُعطى بعضها الآخر مذكرات وصفية موجزة عن المراجع والأصول المطبوعة * . ولكن

---

* بعض أمثلة عن كتب البيليوغرافيات :

International Bibliography of Historical Sciences edited by the International Committee of Historical Sciences. Washington, 1926 .

ويصدر هذا المجلد مرة كل سنة ابتداء من سنة ١٩٢٦ ويشترك فى وضعه طائفة من العلماء والباحثين . وله لجان فرعية فى أقطار أوروبا وأمريكا . وهو ينشر قوائم مختارة من المراجع والأصول التاريخية التى صدرت فى عام مكتفياً بذكر مكان الطبع وتاريخه وعدد صفحات الكتاب . والمؤلفات التى يوردها تشمل جميع نواحى التاريخ ، فتتناول طرق البحث فى علم التاريخ ، والعلوم المساعدة ، ودور الأرشيف ، والمؤلفات العامة عن التاريخ الدستورى ، والتاريخ الاقتصادى ، وعن تاريخ الحضارة . وعصر ما قبل التاريخ ، وشعوب الشرق القديم ، وتاريخ اليونان والرومان ، وتاريخ الكنيسه القديم ، وتاريخ بيزنطة ، وتاريخ العصور الوسطى فى الغرب ، ونواح مختلفة من التاريخ الحديث ، مثل التاريخ الدينى والثقافى والاجتماعى ، وتاريخ العلاقات السياسية ، وتواريخ آسيا وأفريقيا وأمريكا . . .

Bibliographie Critique des Principaux Travaux parus sur l'Histoire de 1600 a 1914 en 1932 et 1933. Paris, 1935.

نشرت هذا المجلد جمعية التاريخ الحديث فى باريس . وهو يعطى قوائم عن نواح من التاريخ العام والخاص مع وصف موجز لما تتناوله المؤلفات الواردة من الموضوعات .

ومن كتب البيليوغرافيات عن قطر معين نجد عن سورية مثلا :

Rohricht, R. : Bibliotheca Geographica Palaestinae. Berlin, 1890.

Mas'on, P. : Bibliographie Française de la Syrie. Marseille, 1919. =

هذا لا يكفى ، إذ أن كتب المراجع لا تكون وافية فى كل الأحوال ، وهى فى الغالب لا تذكر شيئًا عن المقالات المنشورة فى المجلات التاريخية ، وهى كثيرة ومتنوعة . فمن الضرورى إذًا مراجعة فهارس هذه المجلات للإلمام بما يكون قد كتب فيها عن موضوع الدراسة المعين . وكذلك ينبغى على الباحث أن يُراجع فهارس دور الكتب المطبوعة وغير المطبوعة التى تتاح له فرصة التردد عليها فى بلده أو فى الخارج . وعليه أن يجمع من كل هذه النواحى أسماء المراجع والأصول التى تعنيه ، لكى يدرس ما يجده منها كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . ويحسن أن يستعين بعمل فهرس أبجدى لمراجعه وأصوله التاريخية على جزازات من الكرتون (الفيش) ، أو فى صفحات من الورق ، ويدوّن بها ملاحظاته .

= ونجد عن مصر :

Hilmy, Ib. Prince : The Literature of Egypt and the Sudan, 2 vols. London, 1886-1888.

Maunier, R. : Bibliographie Economique Juridique et Sociale de l'Egypte Moderne (1798-1916). Le Caire, 1918.

وفى الشخصيات نجد عن دانتى أليجييرى مثلا :

Cosmo, U. : Guida a Dante. Torino, 1947.

ويعرض بإيجاز نواحى من حياة دانتى ومؤلفاته ، ويأتى فى كل ناحية بقائمة من المصادر والمراجع التى تختص بها .

Koch, Th. W. : Catologue of the Dante Collection presented by W. Fiske to Cornell University, 2 vols. New York, 1898-1900.

Fowler, M. : Additions (to Cornell's Dante Collection, 1898-1920). Ithaca, N.Y., 1921.

يحتوى الفهرس الأول على ٦٠٦ صفحة والثانى على ١٥٢ صفحة ويبلغ مجموع الكتب الدانتية التى وردت بهما حوالى ٨٣٧٥ بنداً وتشمل المؤلفات التى وضعها دانتى بالإيطالية واللاتينية ، وترجماتها ترجمة كاملة أو جزئية إلى اللغات الغربية والشرقية الشائعة وغير الشائعة ، ثم المؤلفات الصادرة عن دانتى ومؤلفاته ، مع وصف موجز لكل بند منها ، وذلك من القرن الرابع عشر حتى سنة ١٩٢٠ . وبلغت محتويات هذه المكتبة النادرة فى جامعة كورنيل فى إيثاكا بولاية نيويورك حينما زرتها فى خريف سنة ١٩٦٢ ، حوالى أحد عشر ألف مجلد ! وهى أكبر مكتبة دانتية فى العالم . ويقوم الآن الأستاذ ا . ل پلجرينى بإعداد قائمة تكميلية لهذه المجموعة ، عما ورد إليها منذ ١٩٢٠ حتى ١٩٦٥ .

Toynbee, P. : Britain's Tribute to Dante in Literature and Art. London, 1921.

يحتوى على قائمة بالمخطوطات والمطبوعات والترجمات لمؤلفات دانتى وللمؤلفات عنه ، فضلا عن قائمة عما يتصل به من الصور وتماثيل وأعمال الحفر والمعارض ، من حوالى سنة ١٣٨٠ حتى سنة ١٩١٣ — ويبين ذلك جهود الإنجليز فى خدمة التراث الدانتى .

Dante : An Excerpt from the General Catalogue of the Printed Books in the British Museum. London, 1952.

ويتجه الباحث بعدئذ إلى البحث عن الوثائق والأصول التاريخية اللازمة لدراسته ، بما تشمله من المعاهدات أو المراسلات السياسية أو التعليمات أو الأوامر أو المذكرات أو القوانين . . . والتى كانت تُحفظ عادة عند الملوك أو الأمراء أو عند بعض رجال الدين ، أو عند بعض الزعماء أو رجال السياسة أو رجال الحرب أو عند عامة الأفراد ، أو عند تجار الوثائق .

وليس من الضرورى أن توجد وثائق وافية عن كل حوادث التاريخ ، إذ تنطمس آثار كثير منها وتزول دلالاته ، بتعرّضها فى ظروف مختلفة للتلف أو الضياع ، مثل ظروف الثورات أو الحرائق أو الرغبة فى التخلص منها وإتلافها عن عمد ، حينما تكون فى حوزة مَنْ لا يفهم قيمتها التاريخية ، أو مَنْ يهمه منع تداول معلوماتها بين الناس . وبذلك يضيع الكثير منها بالنسبة للتاريخ ، وكأن الأفكار والحوادث التى كانت تحملها فى طياتها وثناياها لم تكن فى الوجود .

وعلى ذلك فكثيراً ما يجد المؤرخ فجوات فى مجرى التاريخ ، لا يمكنه أن يملأها ، وستبقى حلقات كثيرة من التاريخ مجهولة إلى الأبد . وليس هناك ما يمكن أن يُعوّض عن ضياع تلك الوثائق . وحيث لا توجد الوثائق ينعدم وجود التاريخ *.

والبحث عن الوثائق (heuristic) من العمليات الأساسية فى كتابة التاريخ . وإن كشف كمية من الوثائق الهامة عن موضوع معين ، هو الذى يُحدد إمكان الاستمرار فى بحثه أو العدول عنه إلى موضوع آخر . والباحث الذى يكتب التاريخ دون أن يحصل على مجموعة من الوثائق الأساسية الجديدة ، أو التى لم يكن قد سبق استخدامها استخداماً علمياً مكتملا ، تنقص قيمة بحثه العلمية أو تتضاءل أو تنعدم ، مهما بذل من مجهود .

ولقد لاقى الباحثون والمؤرخون القدامى صعوبات جمّة فى سبيل الوصول إلى الوثائق التاريخية . وإذا كانت الحوادث التى قصدوا الكتابة عنها قريبة نسبياً من العهد الذى عاشوا فيه ، فإنهم كانوا يرجعون إلى روايات بعض الأشخاص الذين شهدوا الحوادث ، ويقارنون بينها ، وينقدونها ، ويستخلصون منها ما يمكن الوصول

---

* Langlois, Ch. V. et Seignobos, Ch.: Introduction aux Etudes Historiques. Paris, 1898.

Engl. Trans. by G.G. Berry. London, 1912 p. 17.

إليه من الحقائق التاريخية . على أن هذه الطريقة لا تكون سليمة دائمًا لتعرض الروايات الشفوية للتحريف والتغيير ، وإن كان تدوين الروايات الشفوية من شأنه أن يوقف ، فى الغالب ، ما يكون قد دخل عليها من التغيير عند الحد الذى سُجِّلت فيه .

فالوثائق ضرورية جدًّا للعهد القريب نسبيًّا من المؤرخ . فضلاً عن الأزمنة البعيدة عنه . وفى أغلب الأحيان تنتقل الوثائق من حوزة الأفراد إلى الأماكن العامة ، وتُحفظ فى دور الأرشيف ودور الكتب وفى المتاحف والأديرة والكنائس . ولقد وُضعت الفهارس للكثير من الوثائق المحفوظة فى الأماكن العامة . إلا أنها فى أحوال كثيرة تكون غير وافية ، ويكتفى أغلبها بوضع أرقام مجلدات الوثائق مع بيان الشهور والسنوات التى تتناولها . دون أن تصف مضمون محتوياتها . وهى بين قديم وحديث ومخطوط ومطبوع . كما أنه توجد وثائق كثيرة لم تُنظم ولم توضع لها الفهارس الأولية بعد ، فى مصر أو فى الخارج . وتُعدّ هذه الوثائق بالنسبة للباحثين فى حكم المجهولة ، ولا يمكن الإفادة بها قبل تقسيمها وترتيبها ترتيبًا أوليًّا على الأقل .

إلا أن التقدم مستمر فى هذا الميدان . فلقد وُضعت . ولا تزال توضع . فهارس وصفية لبعض نواح من الوثائق فى دور الأرشيف بالغرب . واهتمت الحكومات والهيئات العلمية فى الغرب بإرسال بعوث خاصة من العلماء والباحثين إلى الخارج ، لكى تبحث فى دور الأرشيف الأجنبية عن الوثائق التى تهم بلادها . وعندما فُتح — مثلاً — أرشيف الڤاتيكان للباحثين . أنشأ كثير من الدول معاهد خاصة فى روما . لكى يعمل أعضاؤها فى البحث عن الوثائق التى تعنيهم . والقيام بنسخها ، ووضع الفهارس لما يهمهم منها ، فى أرشيف الڤاتيكان . فهكذا فعلت إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأسپانيا وبلجيكا والدانمرك . . . فهل ندرك نحن قيمة مثل هذا العمل ، ونحذو حذو الأمم الحديثة ، الكبيرة أو الصغيرة ، فى سبيل الحرص على جمع الوثائق التاريخية التى تهم تاريخ بلادنا ، فى كل أو بعض أنحاء العالم ؟ وهل يتوفر لنا الرجال والمال والإمكانيات والزمن الذى يتحقق فيه مثل هذا الهدف العلمى الجليل ؟ هذا هو الأمل المُرتجى تحقيقه ، إن لم يكن اليوم فغدًا .

وكيف يستطيع الباحث المبتدئ أن يشقّ طريقه فى هذا البحر العجّاج ؟ لا ريب أن طريق البحث وعر شاق . ولا بد فى سلوكه من الصبر والجلد . ويمكن للباحث أن يرجع إلى فهارس الوثائق التى يظن أنها تحوى شيئاً يعنيه . ومن حسن الحظ أن تكون بعض الوثائق اللازمة له قد حُصرت ونُظمت ووضعت لها الفهارس التى تسهّل عليه العمل .

ولكن ستبقى أمامه دائمًا مناطق مجهولة لا بد له من الإقدام على كشفها بنفسه . إذْ أن البحث عن الوثائق نوع من المغامرة لمحاولة الكشف عن المجهول . وقد تتعارض فى بعض الأحيان المصلحة بين الباحث وبين أمين الأرشيف . الذى قد يدعى أنه لا يعرف شيئًا عما يطلبه الباحث . لأنه قد يكون هو نفسه مهتمًا بدراسة هذه الوثائق ذاتها ، فيمنعها عنه . وقد تكون مجموعة من الوثائق التى تعنى الباحث فى حوزة باحث آخر عاكف على دراستها لفترة من الزمن . وربما يحتجزها لنفسه حتى ينتهى من بحثه فيها . إلا أنه بشىء من اللباقة والكياسة ، قد يستطيع الباحث أن ينال مساعدة أمين الأرشيف ومساعدة ذلك الباحث الآخر الذى تعنيه هذه الوثائق ذاتها . ويحصل منهما على ما هو فى حاجة إليه[1] . والباحث عن الوثائق يشبه المنقّب عن الآثار الذى قد يظل زمنًا طويلا ينقّب فى مناطق مختلفة ، حتى يعثر فى النهاية على ما يُرضيه ويُرضى العلم .

ولنأخذ بعض الأمثلة العملية عن جمع الوثائق والأصول التاريخية

فالباحث فى دار المحفوظات المصرية عن تاريخ النظام الإدارى فى مصر فى أثناء العهد العثمانى من سنة ١٥١٧ إلى سنة ١٧٩٨ ، سيجد مادة قد وُضعت عنها بعض السجلات الأولية ، فيستعين بها فى فحص بعض « دفاتر كشيدهء مصر[2] » وسيجد أنها تحتوى مثلاً على صور الفرمانات السلطانية الصادرة إلى باشوات القاهرة لحكم هذه البلاد . ويفحص أيضًا بعض دفاتر القيد الخاصة بالفرمانات والأوامر الباشوية الصادرة من الباشا التركى فى القاهرة إلى حكام

---

(١) Crump : op cit. p. 89.

(٢) أى دفاتر قيد ديوان مصر . ويتصل هذا ببعض ما قمت به من بحث حينما كتبت بالاشتراك مع محمد محمد توفيق فصلا عن « تاريخ مصر فى العهد العثمانى (١٥١٧ – ١٧٩٨) » فى سنة ١٩٤٢ ، والمشار إليه آنفاً وفى قائمة المراجع .

الأقاليم . ويدرس دفاتر الميزانية التى تبين وجوه الإيرادات من الضرائب المختلفة وأوجه صرفها ، فى مرتبات الموظفين والعسكر ، وفى أعمال الرى . وفى إعانة الذرارى والمستحقين ، وفى تموين الحرمين وإمدادهما بالمؤن والهدايا . ويمكن لهذا الباحث أن يدرس دفاتر التزامات الأراضى والجمارك بالنسبة للملتزمين . فى نظير ما يؤدونه عليها من الأموال إلى حكومة القاهرة المحلية ، وهكذا .

وسيجد الباحث فى هذه الدفاتر والأوراق كثيراً من معلومات الطريفة عما يبحث عنه . وسيدرك مثلا اختصاصات كل من الباشا العثمانى وأعوانه من الموظفين ، واختصاصات هيئة المماليك المصريين ، واختصاصات الحامية العثمانية والأوجاقات السبعة[1] . وسيفهم مدى التداخل فى اختصاصات هذه العناصر ، وتشابكها ، واشتراكها فى حكم العاصمة ، وفى إدارة الأقاليم ، وفى توطيد الأمن ، وفى العناية بالزراعة والتجارة ، وفى جباية الأموال ، وفى اشتراكها فى حروب السلطان العثمانى فى أوروبا . وسيدرك الباحث مدى ذلك التوازن العجيب الذى أوجده العثمانيون فى مصر ، وفى غيرها من الولايات العثمانية ، للحيلولة دون استقلال عنصر واحد فيها بحكم البلاد ، لضمان بقائها تحت الحكم العثمانى .

والباحث فى دار المحفوظات المصرية كذلك عن تاريخ محمد على ، قائد الجند الألبانى بعد رحيل الحملة الفرنسية عن مصر ، وقبيل توليه حكم البلاد بتأييد من رجالات البلاد ومن شعب القاهرة ، يمكنه أن يدرس بعض الدفاتر الخاصة بمرتبات العساكر الألبانيين ابتداء من سنة ١٢١٧ هـ . وسيجد الباحث فى هذه الدفاتر اسم « محمد على أغا سرجشمهء عساكر أرنؤود[2] » . وسيجمع بعض المعلومات عن مرتباته وعن تكاليف عساكره . ثم يفحص ما يخص محمد على أغا فى « دفاتر كشيدهء مصر » ، كما يبحث فى بعض الأوراق التركية التى لم يتم وضع سجلات لها ، وهى عبارة عن بعض أوامر بشوية ، أو تذاكر ديوانية خاصة بمرتبات الجنود ، وبذلك يستخرج بعض المادة العلمية التى توضح نواحى من تاريخ محمد على فى هذه الفترة من التاريخ .

---

(١) أوجاق فى التركية بمعنى الموقد واستعملت بمعنى فرقة العسكر وكانت الحامية العثمانية فى مصر مقسمة إلى سبع فرق .

(٢) يعنى قائد الجند الألبانى .

والباحث فى تاريخ فخر الدين الثانى أمير لبنان — مثلاً — يلزمه السفر إلى لبنان وسورية ، للرجوع إلى الأصول التاريخية الضرورية ، ولمقابلة بعض العارفين بتاريخ البلاد وبدور الكتب بها . فيصل إلى بيروت للالتقاء بالدكتور أسد رستم فيجده قد انتقل إلى المصيف . فيتبعه إلى ظهور الشوير ، ويتحدث إليه طويلا ويفيد بخبرته الدقيقة وعلمه الغزير . ويشرع فى التردد على المكتبة الشرقية فى كلية القديس يوسف ، ويواظب على البحث والدرس فيها ، فيعثر على الأصول والمراجع الأساسية ، وبعضها نادر الوجود . وعندما يجمع الباحث قدراً معقولا من المعلومات اللازمة له ، ينتقل إلى زحلة للاجتماع بالأستاذ عيسى إسكندر المعلوف صاحب الخبرة الوثيقة بهذا الموضوع التاريخى ، وهناك يكسب قدراً طيباً من الفائدة العلمية . ثم يقصد إلى دمشق . حيث يجتمع بالأستاذين محمد كرد على[١] وعبد القادر المغربى [٢] ، فيتحدث إليهما ، فيستزيد منهما علماً ومعرفة . ثم يلتقى بالأستاذ محمد حسنى الكسم [٣] ، فتنفتح أمامه سبل للبحث جديدة ، ويعثر على مجموعة أساسية من الوثائق الخطية التركية التى لم تُدرس من قبل [٤] .

ويحرص الباحث كذلك على زيارة بعض المواضع التاريخية مثل دير القمر وبيت الدين ، لمشاهدة شىء من آثار الأمير فخر الدين ، ولكى يعرف شيئاً من طبيعة الجبال والوديان والسهول ، ويتنسم هواءها ، ويختلط ببعض السكان من طوائف وبيئات وأسنان مختلفة ، لكى يفهم شيئاً عن البلاد وأهلها ، مما يجعله أقرب إلى موضوع دراسته .

---

(١) محمد بن عبد الرزاق كرد على (١٨٧٦ — ١٩٥٣) اشتغل بالعلم والصحافة والسياسة . وكان رئيساً للمجمع العلمى العربى فى دمشق . وولى وزارة المعارف السورية . ومن آثاره المطبوعة « مجلة المقتبس » و « خطط الشام » و « الإسلام والحضارة » .

(٢) عبد القادر المغربى (١٨٦٧ — ١٩٥٦) من علماء اللغة العربية وكان عضواً فى عدة مجامع علمية ووكيلا للمجمع العلمى العربى فى دمشق . ومن آثاره المطبوعة « الاشتقاق والتعريب » و « عثرات اللسان » و « الأخلاق والواجبات » و « تفسير جزء تبارك » .

(٣) محمد حسنى الكسم (١٨٨٣ — ١٩٥٦) من المشتغلين بالعلم . وكان أميناً للمكتبة الظاهرية ، فى دمشق ، ومن هواة الكتب . واشتغل بتجارة المخطوطات بين سوريا ولبنان وتركيا ومصر . وقد ظللنا على صلة المودة بالمراسلة والرؤية فى سوريا ومصر حتى سنة وفاته ، إذ كنت فى دمشق حينئذ .

(٤) هذه هى مجموعة الوثائق التى سبقت الإشارة إليها فى ص٢٧ حاشية١ . والكلام فى هذا الصدد خاص بما قمت به حينما كنت أعد رسالة بعنوان «فخر الدين بن معن » لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة (القاهرة) فى صيف ١٩٣٣ تحت إشراف الأستاذ محمد شفيق غربال .

وكذلك يحرص الباحث على دراسة عدد من خرائط الشام بالمعنى الواسع — أى من حدود الأناضول إلى حدود مصر — سواء أكانت خرائط طبيعية أم اقتصادية أم سياسية ، حديثة أم قديمة . ثم يرسم لنفسه خريطة تفصيلية كبيرة الحجم والمقياس ، حتى يزداد معرفة بالمواضع المختلفة ، ولكى تكون له هاديًا ودليلا فى أثناء تنقله ، ولكى يلم بمواقع البلاد التى لا تُتاح له فرصة زيارتها .

ويعرف الباحث وهو فى لبنان أن الأب بولس قرألى (قره على) اللبنانى يدرس فى إيطاليا موضوع الأمير فخر الدين المعنى ، فيكتب إليه سائلا إياه أن يمنحه شيئًا مما لديه من الوثائق أو المعلومات عن هذا الموضوع ، فيتكرم الرجل بأن يرسل إليه حوالى ١٥٠ صفحة من صور الوثائق الإيطالية ، المستخرجة من أرشيف فلورنسا التاريخى عن هذا الموضوع ، فيعكف على دراستها ، ويفيد بها أعظم الفائدة .

ثم يتجه الباحث إلى السفر إلى إيطاليا سفرة تمهيدية ، للاستزادة من دراسة اللغة الإيطالية . ولكى يأخذ فكرة عامة عن حضارتها العريقة ، إعدادًا للمستقبل ويذرع إيطاليا طولا وعرضًا ، ويجتذبه إليها ما يشهده فيها من شتى الفنون والعلوم التى سادت فى العصور القديمة ، أو فى العصور الوسطى ، أو فى عصر النهضة ، أو فى العصور الحديثة .

وتُتاح الفرصة للباحث لكى يسافر مرة أخرى بعد فترة قصيرة إلى إيطاليا ، لمتابعة دراسته التاريخية . وهناك يعكف على دراسة الأمير فخر الدين المعنى من جديد ، لوجود وثائق وأصول تاريخية كثيرة عنه لم تُدرس من قبل ، فضلاً عن نواح تاريخية أخرى متصلة به ، مثل تاريخ المصادمات البحرية بين الأسطول العثمانى وبين الأسطول التسكانى فى القرن السابع عشر . ويقصد إلى أرشيف فلورنسا التاريخى ، ويجد بعض ما يفيده فى الفهارس المطبوعة والمخطوطة ، التى يُطلعه عليها المختصون فى ذلك الأرشيف ، ويستدل بها فى فحص بعض المجلدات الخاصة بهذا الموضوع .

ولكنه لا يكتفى بما استخلصه من الفهارس المشار إليها ، فيدرس عشرات من المجلدات فى سنوات محددة وفى نواح مختلفة . فيفحص مثلاً المجلدات التى تحتوى على مراسلات ممثلى فلورنسا فى القسطنطينية ، ومذكرات التجار

الفلورنسيين فى أراضى الدولة العثمانية ، وتقارير رجال سان استيفانو الواردة إلى حكومة فلورنسا . وكذلك يدرس المجلدات التى تضم صور المراسلات الصادرة من حكومة فلورنسا إلى ممثليها فى الشرق الأدنى ، وإلى التجار الفلورنسيين ، وإلى رؤساء نظام سان استيفانو[١] ، ويدرس الباحث كذلك عشرات من المجلدات الخاصة بالمراسلات الواردة من صقلية والبندقية وجنوا مثلا إلى حكومة فلورنسا ، ثم المجلدات التى تحوى صور المراسلات الصادرة من حكومة فلورنسا إلى هذه الحكومات . وينتج عن هذا البحث جمع مادة أصلية فريدة لم يسبق دراستها أو نشرها ، بعضها يؤيد الوثائق السابقة عليها ، وبعضها الآخر يزيدنا إيضاحاً وبعضها يصححها ، أو يضيف إليها ما لم يكن معروفاً من قبل[٢] .

ولا يقتصر الباحث على العمل فى أرشيف واحد . بل يقتضيه البحث العلمى أن يتجه إلى العمل فى دور أرشيف أخرى فى أمكنة متعددة ، وتتناول ما يرغب فى دراسته . فينتقل إلى أرشيف پيزا التاريخى ، ولكنه مع الأسف يجد أن جزءاً هاماً من مجلدات الوثائق التى تدخل فى نطاق بحثه ، قد أكلتها النيران . وإن لم يمنع هذا من عثوره على بعض الوثائق المفيدة .

ويزور الباحث كنيسة سان استيفانو فى پيزا ، ويجد بها طائفة من المراسلات النادرة والكتب القديمة ، ويشهد بمتحفها مجموعة من الأعلام والأسلحة ومصابيح السفن التى كسبها فرسان سان استيفانو ، فى أثناء اشتباكهم بالسفن العثمانية فى البحر الأبيض المتوسط ، وبذلك يزداد اقتراباً وفهماً لما يقوم بدراسته .

وكذلك يتجه الباحث إلى أرشيف البندقية التاريخى ، الملحق بـ « كنيسة

---

(١) كان كوزيمو الأول غراندوق تسكانا (١٥٣٧ – ١٥٧٤) قد أنشأ نظام سان استيفانو البحرى للدفاع عن سواحل تسكان ومهاجمة السفن العثمانية فى البحر الأبيض المتوسط .

(٢) هذا هو ما سمحت به فى خريف ١٩٣٦ ، فى نطاق دراستى لإعداد رسالة بعنوان « فخر الدين الثانى أمير لبنان وعلاقاته بالعرب ، مع وثائق لم تنشر » لنيل الدكتوراه من كلية الآداب والفلسفة بجامعة روما تحت إشراف الأستاذين كارلو ألفونسو نللينو وإتورى روسى .

وكان إتورى روسى (١٨٩٤ – ١٩٥٥ Ettore Rossi) عالماً متضلعاً فى التركية والعربية وأصبح مديراً لمعهد الشرق فى روما ، وصار أستاذاً للتركية فى جامعة روما . ومن آثاره المطبوعة « حصار وفتح رودس بحسب المصادر التركية » و « التاريخ البحرى لفرسان القديس يوحنا وأورشليم ورودس ومالطة » و « سيطرة الإسبان وفرسان مالطة على طرابلس » و « قائمة المخطوطات التركية فى الفاتيكان » . وصرت وثيق الصلة به منذ أن عرفته فى سنة ١٩٣٥ .

الفرارى ، . وهناك يدرس عشرات من المجلدات على النحو المشار إليه ، والتى تحتوى على المراسلات المتبادلة بين حكومة البندقية وبعض الحكومات الإيطالية ، وبالعكس ، والمراسلا ت المتبادلة بين حكومة لبندقيه وممثليها وتجارها فى الشرق الأدنى وبالعكس ، فى نطاق البحث ذاته ، وبذلك يكشف عن مادة تاريخية أصلية لم يسبق نشرها أو درسها من قبل .

ويتجه الباحث إلى الدرس فى أماكن أخرى خارج إيطاليا . فيتجه — مثلاً — إلى أرشيف ڤينا التاريخى . وقبل سفره إليه ، يكتب إلى مدير الأرشيف فى ڤينا مستفهماً منه عما يعنيه . فيرسل إليه المعلومات التى يعرفها قائلاً إن المادة الموجودة قليلة وعديمة الأهمية ، مع ذكر أرقام المجلدات التى تحوى هذه المادة القليلة . ولكن ليس معنى ذلك أن تكون معلومات مدير الأرشيف صحيحة . ويرى الباحث أن علاقات السلم والحرب كانت قوية دائماً بين الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا ، بحكم الجوار وبحكم المصالح المشتركة أو المتعارضة بينهما ، وأنه من المرجح وصول أخبار الشرق الأدنى وبحاره ، إلى حكومة النمسا عن طريق ممثليها فى القسطنطينية . وبذلك لا يقتنع برد مدير الأرشيف ، ويسافر إلى ڤينا . ويجد أن الفهارس المطبوعه والمخطوطة غير ذات جدوى . ولكن لا يمنعه ذلك من البحث ، فيعمل بعض الوقت . ويدرس مراسلات ممثلى النمسا فى القسطنطينية ، كما يدرس لمراسلات المتبادلة بين حكومة النمسا والحكومات الإيطالية فى فترة معينة ، وينتهى به الأمر إلى أن يكشف عن طائفة ممتعة من الوثائق الألمانية والإيطالية التى تدخل فى نطاق بحثه ، فيحملها إلى مدير الأرشيف راجياً إياه أن يُدرج أرقام مجلداتها ومضمونها فى فهارسه المخطوطة على الأقل ، فيفعل .

ويُطبِّق الباحث نفس الطريقة فى باريس . فيزور أرشيف وزارة الخارجية فى الكيه دورسيه ، ولكنه لا يجد سوى قدر قليل مما يعنيه . فيتجه إلى المكتبة الوطنية فى باريس ، حيث يدرس المراسلات المتبادلة بين ممثلى فرنسا فى القسطنطينية والحكومة الفرنسية ، وبين ممثلى فرنسا فى فلورنسا والحكومة الفرنسية ، وبذلك يجد بعض الوثائق التى تحتوى على معلومات فريدة ، لم يسبق حصوله على مثيلها من قبل ، ولم يسبق نشرها ، وليس فى فهرس المكتبة ما يدل على وجودها . ومثال

ذلك ما وجده من المعلومات عما أثاره هرب الأمير فخر الدين إلى تسكانا ، بمعاونة نائب القنصل الفرنسى فى صيدا فى سنة ١٦١٣ . وقد أثار ذلك غضب السلطان العثمانى ، وأوجد أزمة سياسية هدّدت بإنقاص الامتيازات الأجنبية بالنسبة للدول الأوروبية جميعًا ، بل وربما خامرت السلطان فكرة إعلان الحرب على فرنسا[١] .

ويتبع الباحث المنهج نفسه فى لندن . وهناك يتردد على دار المحفوظات التاريخية فى اتشانسيرى لين ، ويدرس المراسلات المتبادلة بين ممثلى إنجلترا فى القسطنطينية وحكومة إنجلترا ، وكذلك المراسلات المتبادلة بين ممثلى إنجلترا فى فلورنسا والحكومة الإنجليزية فيجد مادة تاريخية نافعة لم يسبق نشرها ، وليس هناك ما يدل عليها فى الفهارس الموجودة . ومن ذلك ما يؤيد أخبار تلك الأزمة التى خلقها فرار الأمير فخر الدين ، وما ترتب عليها من غضب السلطان العثمانى والصدر الأعظم على الدول الأوروبية[٢] .

وهذه كلها أمثلة عملية تُعطى فكرة عامة عن طريقة البحث عن الوثائق والأصول التى تظل مجهولة للعلم حتى يُكشف عنها ، وإلى آخر لحظة يظل الباحث يتوقع كشف أصول جديدة تزيد أو توضح أو تغير ما لديه من الحقائق ، مما قد يضطره إلى تعديل معلوماته إذا لم يكن قد طبع بحثه بعد ، أو إلى تغييرها إذا ما أعاد طبع بحثه[٣] .

وينبغى على الباحث أن يرجع دائمًا إلى التصميم العام الذى رسمه لموضوع دراسته ، لكى يعدّل ما يرى تعديله بحسب الطريق العملى الذى يسلكه ، وعليه أن يدوّن النقط الثابتة عنه ، والمسائل المستجدة التى يداخله الشك فى شأنها ، والنقط المجهولة لديه ، وكل ما يتوقع أن يكشف عنه . ويقرأ الباحث بالتدريج المراجع التى تخصّه ، وستُلقى المعلومات الواردة بها ، والمعلومات التى تتضمنها الوثائق والأصول

---

(١) Bibliothèque Nationale de Paris, ms. français, Constantinople 16147, f. 354-357, 384-384 b; 422 a : De Harlay à Puisieux, Pera 3 et 28 Avril et 7 juillet 1614.

(٢) Public Record Office, London : S.P. Turkey 7 (1612-1620) : 69 a : Pindar to Carlton, Pera 9-19 December 1613. 76 : do to do, Pera 3 February 1614.

(٣) قد لا يستطيع الباحث الرجوع إلى وثائق أرشيف القسطنطينية فى هذا الصدد لعدم الفراغ من ترتيبها وتنظيمها مما لا يتيح له فرصة دراستها فعليه الانتظار حتى يتم ذلك أو فليكمل عمله باحث آخر من بعد.

التاريخية ، الضوء بعضها على بعض . وعلى الباحث أن يأخذ من المراجع المعلومات التى تعنيه بلغتها الأصلية أحياناً ، وبالترجمة ، وبالتلخيص ، بحسب الأهمية التى يراها من موضع لآخر ، مع بيان أرقام المجلدات فى دور الكتب ، والصفحات التى ينقل أو يترجم أو يقتبس عنها ، فى هوامش أوراقه الجانبية ، حتى يُمكن الرجوع إليها فى مظانّها إذا اقتضى الأمر ذلك ، ولكى تكون من الأدلة على إثبات صحة ما كشف عنه من الحقائق .

وعلى الباحث أن ينقل بنفسه جزءاً من الوثائق التى يجدها فى دور الأرشيف ، حتى يكسب شيئاً من التجربة الذاتية ، بتعامله مع هذه الأوراق المكدسة ، فيفهم أشياء من خصائصها ، من حيث نوع الورق ، والحبر ، وأقلام الكتابة ، والأختام المهورة بها الأوراق ، إن وجدت ، وسيزيده هذا قرباً من العصر أو من الموضوع الذى يتناوله . ويمكنه فى الوقت نفسه أن يُشرك معه بعض الإخصائيين فى نسخ جزء من الوثائق التى تعنيه ، كما يصور جزءاً منها بطريقة (الفوتوستات) أو (الميكروفيلم) بحسب الضرورة ، واختصاراً للوقت . ومن المستحسن أن ينقل الباحث شيئاً من المعلومات التى لا تتصل مباشرة بموضوع بحثه ، ولكنها تفيده فى إيضاح كثير من المسائل التى تدور حول موضوعه .

ومن الضرورى أن يفهم الباحث محتويات ما ينقله ، من الوثائق والأصول والمراجع ، ويستوعبها أولا بأول حتى لا تتراكم الأوراق أمامه ، ولذلك ينبغى عليه أن يلخص مضمونها فى هوامش الصفحات ، لكى تكون واضحة سهلة التناول .

ومن المذكرات التى على الباحث أن يدونها أولا بأول ، تعليق أو نقد أو ملاحظة على وثيقة أو مصدر ، أو فكرة عن مسألة تفصيلية معينة ، أو إشارة إلى أصل تاريخى أو مرجع للرجوع إليهما فى المستقبل * . وكثيراً ما تعرض للباحث فى هذا الدور من العمل أو فى الأدوار التالية ، آراء ومسائل متشابكة أو غامضة ، فعليه أن يسارع بتدوين ملاحظاته عليها حتى لا ينساها .

ويتصل بالوثائق — فى المعنى العام — الرسوم والصور ، التى هى ذات أهمية خاصة من الناحية التاريخية . والوصف الكتابى مفيد — بدون شك — فى بيان خلُق وعادات نابليون — مثلا — ، ولكن رسم المصور إياه فى أوضاع مختلفة ، أو صنع

---

* Crump : op. cit. p. 117.

المثّال تماثيل له ، يعطينا بالألوان والظلال الواضحة فى الصورة ، ويمنحنا بالتجسيم الواضح فى المرمر أو البرونز ، فكرة أدق تضاف إلى ما يمكن أن نعرفه عنه من أوصافه وخلقه وطباعه ، بطريق الكتابة . فالرسوم ، والصور ، والحفر البارز أو الغائر ، والتماثيل ، تساعدنا فى فهم التاريخ ، وتسجل لنا أحيانًا أشكالا ومناظر وأزياء تغيّرت معالمها أو زالت من الوجود ، أو ربما لا تنجح الكتابة فى التعبير عنها كما ينبغى . ويضاف إلى ذلك الصور الفوتوغرافية التى شاع استخدامها فى الزمن الحديث ، وهى تسجل مشاهد عديدة عن البشر وعن آثار الحضارة والعمران ، أو الآثار التى تُحدثها ثورات الطبيعة ، أو ويلات الحروب ، فينبغى على الباحث أن يُعنى بحصر ودراسة ما يخصه من هذه الأدوات المهمة النافعة فى بحث التاريخ والكتابة عنه ، إن وجدت .

ويتصل بالوثائق أيضًا — فى المعنى العام — آثار الإنسان وبقاياه — فمن ذلك بقايا جسم الإنسان نفسه ، وملابسه ، ومساكنه ، ومبانيه ، وأسلحته ، وأدواته التى كان يستخدمها فى أثناء حياته ، ونقوشه على الأحجار . . . مما يدخل فى نطاق علم الآثار . فينبغى على الباحث فى التاريخ أن يشاهد ويدرس بنفسه آثار العصر الذى يدرس ناحية من تاريخه ، ويزور المبانى القائمة التى كان رجال ذلك العصر يعيشون فيها ، والحدائق التى كانوا يُروّحون عن خواطرهم فى أرجائها ، إن وجدت . وعليه أن يتعرّف على طريقة معيشتهم وأزيائهم ، ومخلفاتهم الشخصية ، وأن يتلمّس ما كانوا يؤثرونه من أدوات الموسيقى وألحانها ، إن كانوا قد فعلوا ذلك . ويمكن أن يرجع الباحث إلى بعض المتاحف العامة أو الخاصة ، أو المبانى أو الأماكن التى كان رجال الماضى يشغلونها أو يشغلون أجزاء منها ، وتحولت الآن إلى أماكن عامة .

ولا ريب أنه من الضرورى للمؤرخ أن يعيش فترة أو فترات من الزمن خلال هذه الذكريات التى تأدّت من الماضى إلى الحاضر ، وأن تشيع فى نفسه هذه الرؤى وتلك الخلجات التى أحاطت برجال العصر الذى يدرسه ، إذْ يُصبح بذلك كله أقدر على استخلاص الحقائق التى تعنيه ، وأقرب إلى فهم روح الموضوع الذى يتناوله ويرغب فى الكتابة عنه .